مظاهر التَّشيؤ في الرواية العراقية: رواية (عذراء سنجار) انموذجاً

م.م دعاء عادل عبد الكريم
مديرية التربية في محافظة بغداد/ الرصافة الثالثة – العراق
Doaaadel989@gmail.com

التقديم: 2022/7/3 القبول: 2022/8/12 النشر: 2023/3/15
Doi: https://doi.org/10.36473/ujhss.v62i1.1983

This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International Licenses

الملخص:

يُعدُّ التشيؤ مشكلةً إنسانيةً خطيرة تطرق أبواب عصرنا الحديث بعدما تغذَّت جذورها التي انغرست في الماضي على بقايا الممارسات غير الإنسانية القديمة, وصولاً لعصر ما قبل التاريخ من عبودية واحتكار الذَّات وسحق القيم الإنسانية, والدراسات السردية الحديثة شأنها شأن غيرها من العلوم تصدَّت لمناقشة هذه الظواهر, ومنها رواية (عذراء سنجار) التي تحدثت عن أزمة المرأة واغترابها عن الواقع الإنساني والاجتماعي, وتشيؤها الذي جعلها تتحول من كائن يتمتع بالحقوق والحياة السليمة إلى أداة وسلعة شيئية يُنتفع منها لأغراض تُنافي الأخلاق والدين وحقوق الإنسان, فهي رواية مُثقلة بالهموم والانتهاكات الإجرامية التي وقعت على الأيزيديين في العراق بشكل عام والمرأة بشكل خاص أثناء الغزو الداعشي لأراضي سنجار عام 2014, فما وقع عليها كان الأكثر بشاعة وإهانة للإنسان والإنسانية جمعاء على مر التأريخ, وكان هذا البحث ميداناً للحديث عن مظاهر التشيؤ في رواية (عذراء سنجار) للكاتب العراقي (وارد بدر السالم).

الكلمات المفتاحية: أزمة الإنسان، الاغتراب، التشيؤ، الترشيد، رواية عذراء سنجار.

Manifestations of Reification in the Iraq Novel: The Novel of the Virgin of Sinjar as a Model

Asst. Inst. Doaa Adel Abd Al-Kareem
Directorate of Education in Baghdad Governorate\ Al- Rusafa Third – Iraq
Doaaadel989@gmail.com

Abstract:

Reification is a serious human problem that has touched the doors of our modem age, after its roots that were planted in the past were nourished on the remnants of ancient inhuman practices up to the prehistoric era of slavery, self-monopolization, and crushing human values, modem narrative studies, like other sciences, have discussed these phenomena, including the narration of the virgin of sinjar which talked about the objectification of woman and their transformation from a being enjoying human rights into a tool and a tool that benefits from them for the purposes of displaying morals, religion and human rights in general, and women in particular, during the isis invasion of the lands of sinjar, what happened to her was the most heinous and humiliating of all human and humanity throughout history, this research was a field to talk about the manifestations of reication and its causes in the novel 'the virgin of sinjar' by the writer wared badr al-salem.

Keywords: human crisis, alienation, objectification, rationalization, The Virgin of Sinjar novel.

المقدمة:

يُعد الوجود الإنساني وما يرتبط به من مشكلات أهم الموضوعات وأكبرها دراسةً وتعمقاً من قبل المفكرين والفلاسفة, فعمدوا للبحث عن ماهية الطبيعة الإنسانية ومضامين الارتباط العلائقي بين الإنسان وبين الآخرين في محيطه, ذلك أنَّ الهدف المحوري التي يجاهد الإنسان في سبيل تحققه هو حيزه الوجودي وكيانه الإنساني في ظل مستجدات العصر, وإشكالياته التي باتت تسلبه جوهره وتعيد هيكلته بما يتماشى مع رغبات القوى المتسلطة على ذلك الإنسان الذي بدأ يتحلَّى بمفاهيم شيئية وقيم استهلاكية عوضاً عن الدعائم الإنسانية, مما أكسبه شعور عدم الاعتراف به شخص كامل العضوية في محيطه الاجتماعي؛ نتيجة الممارسات القاسية المتَّبعة بحقه, كالاحتقار والتعنيف والاغتصاب, وكل ما سبق يجعل الإنسان مكوِّناً ضعيفاً ضمن الإطار التفاعلي للحياة النفسية والاجتماعية, والرواية شأنها شأن العلوم الاجتماعية التي ناقشت أزمة الإنسان في العصر الحديث وإشكاليات الاعتراف بحقوقه الإنسانية, والرواية العراقية لم تتردد في الحديث عن التابوات الاجتماعية والسياسية التي حرمت الإنسان من إنسانيته وقيدته بسلاسل الصراع القيمي والمفاهيمي بشكل قاسٍ.

أزمة الإنسان:

تقف الفلسفة الإغريقية في مقدمة من ناقش أزمة الإنسان وعلى رأسهم (هيرقليطس) الذي ركَّز على دراسة الواقع الإنساني وأهم الظواهر المؤثرة فيه من بينها ظاهرة (التشيؤ), فهي تنشأ من وجهة نظره عندما تتحوَّل الصفات الإنسانية إلى أشياء جامدة, فيصبح التعامل معها بنمط مغاير ومستقل يختلف في مزاياه وصفاته عن الواقعي والمألوف في الجانب الإنساني (البشتاوي, د. يحيى، 2014) (al-bashtawi,dr.yahya,2014, ويذهب (بروتاغوراس) إلى أنَّ كرامة الإنسان تقوم على الرابطة التي تربطه مع الآخرين وتجعله قادراً على ممارسة الحياة بشكل طبيعي, مع نبذ كل ما من شأنه الانزياح عن الإطار السوي للعيش الكريم والحياة السليمة في ظل سيادة الأدوات التقويمية للسلوك والمؤسسات المنظِّمة لديمومة التواصل الاجتماعي الذي ينبذ كل أنماط المبادلة العلائقية الضارة بجوهر الإنسان وقيمته, وكل هذا يستوجب تشريع القوانين المجتمعية؛ لأنها تحفظ للإنسان كرامته وتحفظ شأنه وتكفل حق التمتع بالعدالة, وإن كانت الأخيرة واعزاً إنسانياً مغروساً في التركيبة البشرية في حالة الحكم المشروط بالوعي والنزاهة, فالبشر جميعهم يتشاركون بالعدالة بفضل جوهرهم الإنساني السليم من البواعث المرضية (البشتاوي, د. يحيى، 2014) (al-bashtawi,dr.yahya,2014), التي لربما يتشرذم بها الإنسان ويطغى ويتسلط على من هم أضعف منه وأقل حيلة, فيتطاول على كرامتهم وحريتهم التي تُشكِّل جزءاً هاماً من أجزاء الوجود الإنساني؛ لأن ما يميز الإنسان هو ممارسته للحرية والتمتع بحقوقه الشخصية, وعندما يفقد حريته تنتهي وظيفته في هذه الحياة, ويصبح عاجزاً عن التمتع بكيانه في ظل سيطرة القوة الرادعة لكينونته والاعتراف بذاته وأحقيته في ممارسة الاستقلال, ومن أبرز من نادى بضرورة الاعتراف بذات الإنسان هو (أكسل هونيث) الذي عمد إلى إعادة التجربة الاجتماعية انطلاقاً من أشكال الاعتراف التذاوتي التي يعدُّها مؤسسة لهوية الفرد, مما يؤدي إلى بلورة

الذَّات ونيل حق الاعتراف من الغير (هونيث أكسل، 2012) (honeth,axel,2012,), الذي يكفل وضع حد للصراعات الاجتماعية القائمة على الهيمنة والتعسف والظلم الاجتماعي والاحتقار والإذلال بعد تفشي الطابع الأداتي الذي طغى بصورة كبيرة على ميادين الحياة.

الاغتراب:

يُظهر (ماركس) اهتماماً كبيراً بالعناصر الوجودية للشقاء الإنساني, فهو يرى بأنَّ جذور الاغتراب تمتد إلى العجز عن استيعاب عمل آليات التاريخ وإخضاعها للسيطرة البشرية, ويرى إنَّ التحرر السياسي يخضع لنموذج التحرر البشري داخل مجموعة حرة لا طبقية تنبذ الاغتراب والشقاء الذي يؤدي انتشارهما إلى تشرذم المجتمع, الأمر الذي ينتج عنه ظهور احتياجات مصطنعة تُفسد الفضائل مثل: الاحتشام, الرحمة, الاحترام وغيرها (برونر, ستيفن إريك، 2016) (broner,stevenerik,2016), وبخلافها تسود الرذائل كالظلم والفسوق والإهانة مما يعكر النظام الطبيعي للحياة, ويُعد (هيجل) أول من قدَّم تحليلاً منهجياً للاغتراب, إذ كان مؤمناً بأنَّ الاغتراب "سيبقى قائماً ما دامت البشرية مُبعدة عن غاياتها الأساس وقد أبصر التاريخ على أنَّه طاولة ذبح رغم إنَّ تحقيق الحرية البشرية أمر مقدَّر, وإدراكها هو عملية غائية تُرفض فيها الممارسات التعسفية للقوة" (برونر, ستيفن إريك، 2016) (beoner,stwvenerik,2016), بينما يذهب (ماركس) إلى أنَّ الحديث عن بعض الأفكار المرتبطة بالحرية هو أمر غير دقيق, كالسادة والعبيد أو الأغنياء والفقراء, وفي ذات الوقت لا يُفيد في معرفة الوعي بمصادر الاغتراب وكيفية استمراره, بل " فقط عندما يصبح العالم الموضوعي حول الإنسان عالم القوى الجوهرية للإنسان, يمكن أن تصبح كل الأشياء في عينيه تشيؤاً" (برونر, ستيفن إريك، 2016), أي أن قوى الخير والشر هي المُنظِّم الأساس لمحيط الإنسان وعلاقته مع نفسه ومع الآخرين.

التشيؤ:

تأخذ الكثير من المصطلحات نصيبها من التَّطور تزامناً مع الحداثة التي من المفترض أنَّها تنير عتمة واقعنا وتبدِّل أَحوالنا الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية, إلا أنَّها في أحايين كثيرة تزيد هذا العالم غربةً ووحشة وضياع؛ نتيجة الانتكاسات الفكرية والثقافية التي تعصف بالشعوب من وقت لآخر, ومن أبرز تلك المصطلحات التي نالت نصيبها من التطور اللغوي والمفاهيمي هو (التشيؤ), الذي أخذ صدىً كبيراً في الدراسات الاجتماعية والفلسفية والأدبية؛ بوصفه إفرازاً طبقياً حداثوياً أنتجته أدوات العصر وأزمة التاريخ المعاصر, الذي هو في حقيقته انعكاسٌ بؤرياً للمفاهيم المرتبطة بالعبودية, واستغلال الذَّات البشرية التي لازالت متمسِّكة بجذورها في مواكبة العصور البيروقراطية في كل زمان ومكان, فبعدما تشعَّبت الأَخيرة في مفاصل العصور القديمة وما آلت إليه من دحض وتسقيط للقيمة الإنسانية للفرد عادت مستفحلة من جديد في عصرنا الحديث بمضامينها المختلفة وأساليبها المتغايرة من مجتمع لآخر, ومن بيئة لأخرى بثيمة جديدة, ومنها (التشيؤ) الذي يرى الإنسان عبارة عن شيء متصنِّم وسلعة قابلة للبيع والشراء والاستغلال والمقايضة,

فأصبحت العلاقات البشرية قائمة على تجارة المنفعة واستهلاك القيم والانتفاع من الضحايا جسدياً وفكرياً ومادياً.

الترشيد:

يرى (لوكاش) إنَّ مشكلة (التشيؤ) وصنمية السِّلعة (الإنسان مثالاً) هي مشكلة نوعية لعصرنا, وإنَّ التعامل التجاري والصلات المطابقة له وجدت في مراحل بدائية من تطور المجتمعات, فقضية امتداد التعامل التجاري صيغة سائدة للمبادلات في مجتمع ما لاتدع نفسها تعالج في اتباع عادات الفكر المعاصر المشيأة بتأثير الصيغة التجارية السائدة فيه, وإن تعميم هذه الصيغة يسبب تجريداً للعمل الإنساني (لوكاش جورج، 1982) (lokashjorj,1982), ويسلب الإنسان قيمته وذاته المستقلة, أما بشأن مسببات (التشيؤ) فقد أجملها المنظِّرون بعدة محاور, وما يهمنا الآن هو السبب الأوسع انتشاراً وهو (الترشيد) والمراد به: ترشيد القيمة الإنسانية للفرد وعلى ضوئها يتم إخراج الإنسان من عالمه الإنساني وزجَّه في عالم الأَشياء, فيصبح هو والأشياء في منزلة واحدة يتحرك داخل قوقعة تسودها النُّظم البيروقراطية وليس الشخصية, فهو بمثابة اقتحام للذات الإنسانية وسرقة مضامينها الجوهرية ومعانيها الأَصيلة, واستبدالها بسلوكيات عقيمة لا تمكِّن الإنسان من جعله إنساناً حقيقياً.

يُعد (الترشيد) من المصطلحات الأَكثر شيوعاً في كتابات (ماركس فيبر) المختص بدراسة المجتمعات الحديثة, إذ يراه عملية فرض وتنميط للنماذج البيروقراطية على الواقع الإنساني, والتي تزداد تضخماً إلى أن تصل إلى القمة الإمبريالية, فتتم السيطرة على كل جوانب الحياة, ويتحكَّم المتجبرون في الواقع إلى أن يتحول المجتمع إلى آلة بشرية ضخمة تُجبر الأَفراد على أن يؤدوا أدواراً محددة ويشغلوا أماكن محددة لهم مسبقاً, فيؤدي ذلك لانعدام الحرية الفردية وتحوّل المجتمع إلى قفص حديدي (المسيري, عبد الوهاب، 2002) (al-maseri,abdalwahhab,2002), يصعب الهروب منه لاستنشاق أنفاس الحياة النقية, كما يرى أعضاء (مدرسة فرانكفورت) أنَّ تحجيم الفرد وانحسار القيم الروحية والثقافية لديه يعود إلى انتشار ظاهرة (الترشيد), مما جعل الإنسان كائناً متشيئاً يرتبط وجوده بالاستهلاك والتسليع, أما (هوركايمر وأدورنو) فقد ذهبا إلى أنَّ ترشيد العلاقات الاجتماعية في عصرنا الحديث أدَّى إلى أمرين متناقضين: الأول هو انعتاق الإنسان من أسر الضرورة المادية, والثاني هو تسلعه وتشيئه وبهذا يكون فاقد للحرية والعدالة والسعادة (لوكاش جورج، 1982), ولربما ينتهي به الأمر إلى ارتكاب الجرائم كالقتل والانتحار؛ تخلصاً من واقعه التعيس وتحرراً من سطوة الظالم.

رواية عذراء سنجار:

تتماز رواية (عذراء سنجار) للكاتب العراقي (وارد بدر السالم) بكونها من الروايات الوثائقية التي رصدت حقبة مظلمة ونمط من أنماط التأريخ الذي عاشه المجتمع العراقي في العصر الحديث, وكأنها مغامرة سردية توغلت إلى قعر المعاناة بنسقٍ روائي يجمع بين الواقعي والفانتازي, فكشفت بعض العقائد الشوفينية والأفكار السامَّة المتداولة لدى التنظيمات الإرهابية, كما تحدَّثت عن الأزمة الإنسانية وبشاعة

الممارسات التي قامت بها التنظيمات تحت مسمى الدولة الإسلامية (داعش) تجاه الطائفة الأيزيدية في شمال العراق, وفي سنجار تحديداً من قتل وذبح وسبي واغتصاب جماعي وحرق وتعذيب للمسنين, مستغلين ضعف موقفهم السياسي والاجتماعي؛ بوصفهم أقلية سكانية عصف بهم التأريخ كثيراً وتعرَّضوا لحملاتِ كثيرة من الإبادة في مراحل مختلفة, وآخر تلك الحملات كان على يد تنظيم داعش الإرهابي, فقامت عناصره المتطرّفة بشتى أنواع القتل والإذلال والاحتقار والإهانة والاستغلال أثناء احتلال سنجار الدَّامي, والتعامل مع الإنسان الأيزيدي على أنَّه مخلوق شيئي مكرَّس لتلبية احتياجاتهم, ولا سيما المرأة التي عمل التنظيم على ترشيدها فأصبحت شيئاً للمتعة ومرتعاً للذل والاستغلال, ونجح في تحويل أكثر من ثلاثة آلاف امرأة أيزيدية إلى جسد استهلاكي يُباع ويُشترى بسهولة, ويتم الانتفاع منه والاستمتاع به بطرق حيوانية وهمجية تحت مسمى وصايا الدين ومتطلبات الجهاد "نحن غنائم التاريخ السهلة, وقنطرة العبور إلى اللذة الجنسية الإسلامية كما يبدو" (السالم, وارد بدر، 2016) (al-salim,waredbader,2016), وكأن المرأة هي العنصر الأضعف ذاتياً والأقوى نفعياً في مساقات الفكر المتطرف الذي يجدها وسيلة متعددة الأغراض يستطيع بوساطتها تحقيق منافعه بعيداً عن استقلالها وحقها في تقرير مصيرها.

تبدأ الرواية بوصف سوداوي وحزين للبيئة وسكانها من بشر وحيوانات وكأنهم يستشعرون فداحة الزمن الذي سيأتي محمَّلاً بالأقدار الدامية والمآسي المفجعة على هذه المدينة التي كانت غارقة في السلام والطمأنينة " انغلقت السماء بغيومٍ داكنة ونزل المطر خفيفاً ومتقطعاً تخالطه أغصانٌ من بروقٍ ضوئية سريعة, فانتشر ظل رمادي سميك على السطح جعل المرأة الحامل أن تسارع بتجميع الثياب القليلة المنشورة على حبل الغسيل... الغراب مضموم الجناحين على السياج المثلوم ينظر إلى السماء ثم إلى الكلب, فيما ظل الصقر ينظر إلى المرأة بعينين فاحصتين متضايقاً من الوقت القصير الذي سينتهي ما أن يهطل المطر بغزارة. تساءل الغراب: أراك قلقاً سيدي الصقر!... تنهّد الصقر: قلق لأن قلبي لا يطاوعني ترك شنكال" (السالم, وارد بدر، 2016), فيكشف لنا الحوار بين الصقر والغراب حالة البؤس التي يشعر بها سكان سنجار وهم عاجزين عن مغادرة المدينة التي باتت بورة للموت والدمار؛ نتيجة المواجهات العسكرية بين الجيش العراقي وعصابات تنظيم داعش, بعدما قام الأخير بمحاصرة المدينة والتنكيل بأهلها "ضقنا ذرعاً من هذا السجن.. حتى السماء ضاقت علينا.. أي رصاصة عابرة تؤدي إلى الموت" (السالم, وارد بدر، 2016), فالموت أصبح خلاصاً سريعاً لهم من حياتهم الجديدة بعد الغزو الذي مارس شتى أنواع الترهيب وطرق القتل اللاإنسانية" القتل عندهم عادة وطبيعي جداً.. لهم لهجات ولغات مؤكد لا تعرفونها.. قتل البشر لديهم شريعة وواجب.. لا أبالغ وسترون هذا لتعرفوا أي دين يستبيح سنجار" (السالم، عذراء سنجار، 2016), إذ كان القتل هو الوسيلة التي يستعين بها التنظيم لمواجهة الأيزيديين الرافضين ترك ديانتهم الأم واعتناق الإسلام بشكل قسري " تغيرت شنكال في هذه الشهور... الذين بقوا ولم يستطيعوا الهرب فقدوا أيزيديتهم مضطرين وصاروا مسلمين ومن رفض قطعوا رقبته بشكل سهل" (السالم، عذراء سنجار، 2016), فمن أصرَّ على ديانته قُتل ومن كان رافضاً استطاع بعضهم الهرب إلى مناطق شمال العراق وخارجه؛ خوفاً على أرواحهم من القتل وعلى أعراضهم من التدنيس " شنكال بالنسبة لهم قبضة صغيرة للنكاح والممر الآمن واستراحة المجاهدين

القادمين من كل العالم" (السالم، عذراء سنجار، 2016), لا سيما إنَّ التنظيم كان غايته من البطش بهم هو الحصول على النساء كسبايا وجواري؛ لإشباع غرائزهم وممارساتهم الوضيعة, وكأن المرأة الأيزيدية أصبحت شيئاً نفعياً وأداةً استهلاكية تلبي رغبات المستهلك بعيداً عن كيانها الإنساني وحقوقها الذاتية وامتيازات كينونتها البشرية "كل الأيزيديات سبايا يا عم. أغلبهن باعوهن بالموصل والرّقة وحلب والفلوجة... كل داعشي له حصة من السبايا الأيزيديات وهو حر أن يبقيهن معه أو يبيعهن لمن يشاء ليزيد من رصيده المالي... كل بيت فيه سبايا صرن خادمات أو زوجات" (السالم، عذراء سنجار، 2016), قسراً وإكراهاً لعدم قدرتها على الرفض والامتناع.

أصبحت المرأة الأيزيدية أكثر اغتراباً عن واقعها الإنساني عندما تحوَّلت من كائن بشري يتمتع بكل المقومات الإنسانية إلى كائن صنمي متشيء وسلعة تُعرض للتثمين في سوق النخاسة؛ لتلبية أغراض المغتصبين للأَرض والعرض, فأصبحت بفعل ترشيد وجودها في الحياة لا تملك حق تقرير مصيرها أو التعبير عن رأيها أو تغيير واقعها البائس, بل تعيش تحت إمرة مالكها الذي سيبيعها إلى الآخرين بعد الإنتهاء من غايته والاستفادة مما قدمته له من خدمات جنسية وغيرها" دفع الكويتي 50 دولار ووقّع على استلام الصبية التي بدأت تنشج. منحه المحاسب وصل استلام ووثيقة تملك وعقد نكاح لم يقرأ منه شيئاً وقال له: أول بيعة لنارين كانت بـ600 دولار.. لكن السوق الآن انخفض" (السالم، عذراء سنجار، 2016), كما مورس عليها أبشع أنوع التعذيب والهتك للقيم الأخلاقية والدينية عندما كانوا يستعرضون جسدها العاري أمام الجميع بدواعي تطبيق الحد عليها لمخالفتها أحكامهم الشرعية " توقفت السيارة في منتصف السوق وهبط منها أربعة رجال يتنكبون البنادق فيما بدا حوضها الخلفي يحمل ست صبايا عاريات, متقاربات الأعمار, كأنهن توائم أخرجن من رحم واحد. يقفن صفين مرتعشات ومجلّلات بالخزي والخجل والعار, وفي عيونهن ذعر يمكن للجميع رؤيته شاخصاً في مشهد العرض الخارق تربطهن سلسلة واحدة تمر بين أقدامهن على التوالي, فيما رُبطت أيديهن إلى الوراء بسلسلة أخرى على التعاقب" (السالم، عذراء سنجار، 2016), فتعرضت للكثير من التعذيب عندما حاولت الصمود بوجه الغازي والاحتفاظ بكرامتها وشرفها ودينها " بالنظر لامتناع الكافرات المدرجة أسماؤهن في أدناه بالدخول إلى الدين الإسلامي الحنيف, ونظراً لصغر أعمارهن وبعضهن غير بالغات, فقد حكمنا شرعا بحقهن الحكم التالي: أولاً: حلق رؤوسهن في مكان عام ويشهد على ذلك العامة. ثانياً: جلدهن ثلاثين جلدة في مكان عام ويشهد على ذلك العامة. ثالثاً تُعد هذه العقوبة أولية وتأديبية وتودع الكافرات في سجن الولاية بعد الجلد لحين توبتهن" (السالم، عذراء سنجار، 2016), واستمرت محنة التعذيب لشهور طويلة دون أن تُسمع استغاثتها أو الهرع لإنقاذها من قبضة المجاهدين الذين يُنزلون على جسد الأيزيديات السياط والتلذذ بمشهد الوجع والموت والاغتصاب "كان وقع السياط لاسعاً أثار الصراخ والعويل للصبايا اللواتي كنّ صامتات حتى قبل لحظة. ومع أول سوط للمجدور انفتحت الأجساد عن صراخ مكبوت وتوسلات طفولية غير مفهومة في فوضى اللغط الذي أثاره السكان وهم يتحركون في أماكنهم متقاطعين في الألم والذعر... فيما كانت السياط ترسم تقاطعاته على الأجساد الناعمة وتترك آثارها بخطوط حمر نزف معظمها" (السالم، عذراء سنجار، 2016), فضلاً عن ذلك فقد تعرَّضت لجريمة البيع والشراء وتحولت إلى سلعة يتم بيعها أو

استبدالها تبعاً لرغبة مالكها, ويتم تداولها بين المدن المختلفة يشتريها أحد المجاهدين من مدينة ويبيعها في مدينة أخرى " كل الأيزيديات سبايا يا عم. أغلبهن باعوهن بالموصل والرقة وحلب والفلوجة... كل داعشي له حصة من السبايا الأيزيديات وهو حر أن يبقيهن معه أو يبيعهن لمن يشاء ليزيد من رصيده المالي" (السالم، عذراء سنجار، 2016), في حال عدم الانتفاع منها والاستفادة من تشيئها كما تصف إحدى الأسيرات بقولها: " البيع جاء بي إلى دار الشيشاني كسلعة. باعني أحدهم لأنه لم ينل مني فأنا خمسينية لا روح في داخلي ولا أهوى الرجل وأخجل من نفسي كثيراً" (السالم، عذراء سنجار، 2016), كما واستُغل جسد المرأة الأيزيدية لإذلال الرجال من الآباء والأخوة الذين رفضوا وجود التنظيم والارتماء في أحضانه, فكان اغتصاب بناتهم أقسى تلك الوسائل " اغتصبوا صبايا أمام آبائهن وإخوانهن بدعوى زواج المجاهدين.. حدث هذا في أول الغزو" (السالم، عذراء سنجار، 2016), ولم يكفيهم التشييء الجسدي بدوافع المتعة والتسلية بل قاموا بأبشع من ذلك لتحقيق أهدافهم الخبيثة بإطلاق سراح بعض الأسيرات وهن حوامل؛ للاستفادة من التوزيع الديموغرافي لنسلهم في المستقبل "إن داعش أطلقت سراح بعض الأسيرات الصغيرات وهنّ حوامل في شهرهنّ الأخير وإن الأهالي هرعوا لتفقد صبياتهم المخطوفات منذ ثمانية أشهر مهما كان العار الذي يجلبنه معهن" (السالم، عذراء سنجار، 2016), واستناداً لما تم ذكره يمكن تشخيص مظاهر التشيؤ التي تعرضت لها المرأة الأيزيدية بالآتي:

- **تشيؤ العقل:**

عن طريق فرض القيود ومختلف أشكال السيطرة والقمع, مما أفقد عقلها مزاياه الأصيلة في إنتاج الوعي والأفكار التي تنسجم مع الحياة والواقع الذي ترغب في بنائه, فضلاً عن ترسيخ الممارسات والمعتقدات التي يؤمنون بها قسريً في عقله وجعلها طوعاً لأفكارهم.

- **تشيؤ الجسد:**

عن طريق الاغتصاب والزواج القسري وإرغامهن على الحمل والإنجاب؛ كون المرأة الأيزيدية غنيمة حرب, فتم تحويلها من إنسان إلى أداة للمتعة والمنفعة.

- **تشيؤ القيم الإنسانية:**

عن طريق تجريد المرأة من محتواها الإنساني وسرقة مضامينها الجوهرية وتجميد قيمها الروحية, وجعلها شيء صنمي بلا حياة ولا انسجام مع المجتمع.

وبذلك عانت المرأة الأيزيدية انتهاكاً عقلياً وجسدياً وإنسانياً كان الأقسى تأريخياً, فلن تزول وصمة عاره ولن تُهدم جبال ألمه مهما طال الزمن, وتبقى حادثة سنجار وممارسات تنظيم داعش من المراحل الأكثر سوداوية في تأريخ العراق الحديث, لذلك انبرى الكثير من الأدباء لتوثيق هذه المرحلة بالكثير من القصص والروايات؛ لتكون شاهداً أدبياً على تلك الممارسات الإجرامية والأزمات الإنسانية التي جعلت الإنسان الأيزيدي لاسيما المرأة غير قادرة على ممارسة الحياة بشكلٍ طبيعي في ظل استلاب الحرية والكرامة وانعدام الاعتراف التذاوتي الذي يؤدي تجذره لشيوع الصراعات الإنسانية وتشرذم المجتمع كما أوضحنا سابقاً, فيعاني الانسان نتيجة لذلك اغتراباً اجتماعياً يجعله منصرفاً عن النظام الطبيعي للحياة القائم على الرحمة والعدالة

والمساوة وغيرها من الفضائل, بفعل القوى المتسلطة التي تسعى بوساطة الترشيد إلى تحويل المجتمع إلى آلة بشرية تؤدي أغراضاً محددة, وهذا ما حدث للمرأة الأيزيدية التي تم ترشيدها وارتباط وجودها بالاستهلاك الجسدي والعقلي.

الخاتمة:

إنَّ رواية (عذراء سنجار) من الروايات العراقية التأريخية في العصر الحديث, فهي مُثقلة بالهموم الكثيرة والانتهاكات الإجرامية التي وقعت على الأَيزيديين في قضاء سنجار, إلا أنَّ قضية المرأة كانت الأَكثر بشاعة وإهانة للإنسان والإنسانية جمعاء, فتشيؤها كان امتداداً للعبودية التي عانى الإنسان منها قديماً ومن أَساليبها المقيتة المتمثلة بامتلاك المصير ونفي الحرية والعدالة وإهانة القيم الإنسانية وتفريغ الذَّات من جوهرها الأَصيل, وتحويل العلاقات بين البشر لعلاقة تسليع وتسقيط للصلات المشتركة, وجعلها علاقة تتضمن عقود شرائية من أجل المنفعة والاستغلال, فعانت المرأة الأيزيدية محنة كبيرة وانتهاكاً دينياً وأخلاقياً واجتماعياً جعلها فاقدة لحريتها وشرفها وحقها في العيش الكريم وكأنها سلعة وجسد متشيء يلبي أغراض المالك وغاياته فقط لا غير.

المصادر:

1–البشتاوي, د. يحيى, (2014), أزمة الإنسان في الأدب المعاصر, ط1, دار ومكتبة الكندي للنشر والتوزيع, الأردن.

2–لوكاش, جورج, (1982), التاريخ والوعي الطبقي, تر. الشاعر, د. حنا, ط2, دار الأندلس, بيروت.

3–هونيث, أكسل,(2012) التشيؤ دراسة في نظرية الاعتراف, تر. بومنير, د. جمال, ط1, مؤسسة كنوز الحكمة, الجزائر.

4–المسيري عبد الوهاب (2002), الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان, ط2, دار الفكر المعاصر, بيروت.

5–برونر, ستيفن إيرك, (2016), النظرية النقدية, تر. عادل, سارة, مر. محمد, مصطفى, ط1, مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة, مصر.

6–السالم, وارد بدر, (2016), عذراء سنجار, ط2, دار الجواهري, العراق.

References:

1- Al-baashtawi, dr.yahya, (2014), the human crisis in contemporary literature, 1st edition, dar al-kendi, jorden.

2- Al-masery, abd al-wahhab, (2002), materialistic philosophy and the dismantling of human, 2nd edition, dar al- contemporary thought. Beirut.

Al- salem, wared bader, (2016), virgin senjar, 2nd edition, dar al- jawahri, Iraq. 3-

4- Bronar, stevn erik, (2016), monetary theory, by: adel, sara, review: moamed, Mustafa, 1st edition, establishment hendawi, Egypt.

5- Honeth, axel,(2012), reification: a study in the theory of recognition, by: bomuner. dr.jamal, 1st edition, institution konoz al- hekma, Algeria.
6- Lokash, jorj, (1982), history and class consciousness, by: poet. Dr. hanna, 2nd edition, dar al- andlus, Beirut..